ارتحالات (رحلة ابن فضلان) وتحولاتها رحلة المحارب الثالث عشر نحو سقف العالم

أ.د. سعيد عبد الهادي المرهج*

«إنما صدق قول القائل «ليس الخبر كالعيان» لأن العيان هو إدراك عين الناظر عين المنظور إليه في زمان وجوده وفي مكان حصوله، ولولا لواحق آفات بالخبر لكانت فضيلته تبين على العيان والنظر لقصورهما على الوجود الذي لا يتعدى آنات الزمان وتناول الخبر إياها وما قبلها من ماضي الأزمنة وبعدها من مقتبلها حتى يعم الخبر لذلك الموجود والمعدوم معا»[1].

البيروني

1. مقدمة

لا خلاف على أن التنقل سمة أساسية مازت الحياة البدوية، وربما ما ذهب إليه دولوز من أن البدوي ليس هو المتنقل، بل العشب هو من يتنقل عبارة فيها الكثير من الصدق[2] لوصف الحال العام لمجتمعات الصيد، وليس البدوية فحسب، وهي مجتمعات مختلفة كثيرا عن مجتمعات الزراعة. يا ترى هل يمكن لنا أن نربط التنقل بالترحل؟ أليس هذا البدوي نفسه الذي كان إذا اصطاف في فارس أشتى عند الروم؟ ومن ثمّ هل لنا أن نقول إن الرحلة تمثل ثقافة العرب الوحيدة الخالدة بخلود بداوتهم؟ وبرغم أن أدب الرحلة ليس هو الرحلة إلا أن وجود حياة الترحّل وسيادتها يجعل من انتشار أدب الرحلة أمرا طبيعيا، إذ إن ما يرسّخ جنسا أدبيا أو نمطا إنّما هو وجود قارئ يتفاعل معه ويمنحه مشروعية البقاء.

(*)كلية دجلة الجامعة – بغداد

(1) تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني، عالم الكتب، بيروت، ط3، 1983: 13.

(2) بقيت هذه العبارة أسيرة الذاكرة، في حين ذهب الى معان قريبة في كتاب ماهي الفلسفة، ترجمة مطاع الصفدي، مركز الإنماء القومي، بيروت، ط2، 1997م، ص 83.

فـإذا ما أضفنـا حاجة السـلطة السياسـية تبدّت لنـا ضرورة الوجـود لا ترفـه. وهذا مـا يفسر لنا انتشار الأدب الجغرافي في القرن الثالث الهجري[3]، الذي يمكن أن نعدّه قرن اسـتقرار الدولة العربية الإسـلامية مـن جهة التوسـع، كما هـو الحال من جهة تشكّل العلوم. ومن ثمّ كانت ولادة الرحلة فنا مقروءا كان يمثل هاجس التعرف، والاستكشـاف. هو الأمر نفسه الذي شَغل كاتبها نفسه. لكن حين نسـتعيدها رواية وفيلمـا ومسلسـلا، وبهواجس ثقافـات مختلفـة، حينهـا يجب علينـا أن نتوقف أمـام هذه التحولات لا لنقرأ البلغار بعيون العرب، بل لنقرأ العرب بعيون الأمم المسـتعيدة لها أيضا. فضلا عن الوقوف عند أسـباب هـذه الارتحالات.. ربمـا هـذه الزوايا الأبرز التي تسـتحق أن ترصد، بالنسبة لنا، هنا.

2. اكتشاف الآخر تشكّل الذات

صورتنا عن الهند فيها الكثير مما يمكن أن نرى فيه صورة للذات عن نفسـها، فهذه العوالم الممتدة من جنوب العراق مـرورا بفارس وصولا إلى الهند تجمعها الكثير من المشـتركات التي جعلتها الممثل الأكـبر للشرق. لكـن صورتنا عن الغرب تشـوبها الكثير من التصدعات، بفعل الصراع المتجلي في كلّ شيء بين هذين العالمـين. صراع كان القرن الثامن يشـكلّ قمتـه؛ بفعـل التوسـع الهائـل للفتوحات العربية- الإسـلامية، توسـع كان التصادم محركه الأساس. ويمكن لنا أن نقول إن تشكّل الذات وليد هـذه العلاقـة المتصارعـة والمتصالحة مـع الآخر، إذ إن أدب الرحلـة، وأن عُـدّ أدبـا ذاتيا في جوهره، لكنـه أُدرج، ومازال، تحت جنس أوسـع هو الأدب الجغـرافي، الذي فيـه من دقة الوصف، وشـمولية النتائـج ما يجعلـه علما إنسـانيا موضوعيا. هكذا يمكـن أن نقـول إنّ أدب الرحلة وليـد تقاطع بين الذاتـي والموضوعـي محكـوم بتبئـير القـارئ لا الراوي فحسـب. مثلمـا عانى، في الثقافـة العربية الإسـلامية، مـن مـا يمكن تسـميته بقلـق الهوية لكونه مجـالا بكرا لم يألف العرب الكتابة فيه قبل العـصر العبـاسي. وهـذا الأدب الذي ولـد مشرقيا تشـكّل واكتمـل مغربيـا. بوصفه مجـالا خاصا، أو إبداعـا غير خاضع للتجنيـس المعتاد في الثقافة العربيـة. وإذا كان كراتشوفسـكي قد ذهب إلى أن فهمنـا للعالم القديم قائم في الدرجة الأسـاس على مـا قدمه الجغرافيون العرب، فإنه يشـير في مكان لاحـق إلى أنّ ما قدّمـه الرحالة العـرب فيه خضع لهـذا الطابع المزدوج بـين العلم الصـارم والبيان الفنـي العالي[4] . ومن ثمّ فـإن الرحلة توزعت بين مجالـين: الجغرافيا والأدب، مثلما ترجرج المرتحل بين المسافر والمستكشف (الاثنوجرافي).

3. سؤال الرحلة

انطلقـت الرحلـة في يـوم الخميـس 11 صفر 309هـ - 21 يونيو921م اسـتجابة لطلب من ملـك الصقالبة، يطلـب المال لبناء حصـن وإماما يـؤم الناس في مسـجد ينوي بنـاءه، ويفقه الناس في دينهم (الجديـد). إذن الذاهب وظيفته محددة: فنُدِبـت أنا (ابن فضلان) لقراءة الكتاب عليه (أمير الصقالبـة) وتسـليم ما أُهدي إليـه والإشراف على الفقهاء والمعلمين»[5].

رافقه عبد الله بن باشـتو الخزري، والرسـول من جهة السلطان سوسن الروسي مولى نذير الحرمي، وتكين التركي، وبارس الصقلابي. وقد ذهب الدهان إلى أنّ اثنـين من أعضـاء الوفد البغـدادي يعرفان الروسية، هما: سوسن الروسي وبارس الصقلابي؛

(3)ينظر: الجغرافية عند العرب، الدكتور شـاكر خصباك، المؤسسة العربية للدراسـات والنشر، بيروت، ط1، 1986: 11. وفيه يعدّ القرنين الرابـع والخامس قمة ما وصل إليه العطاء الجغرافي العربي رابطا هذا المجال بالرحلة وأدبها.

(4)ينظر: تاريـخ الأدب الجغرافي العربي،كراتشكوفسـكي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، لجنة التأليف والترجمة والنـشر، القاهـرة، ط1، 1957: 17. وهـو يـدرج أدب الرحلات ضمـن الجغرافيا الوصفية. التي يرى أنها الميّزة الأساس للعرب في هذا المجال.

(5) رحلة ابن فضلان: ص-39 40.

فالأول يبدو في نسبته أنه من بلاد الروس، والثاني إسمه ونسبه دليلان على أصله. وأما الثالث فهو تركي يجيد لغات الأتراك التي يمر ببلادها الوفد في طريقه إلى الفولجا وأما الرابع فهو أحمد بن فضلان الذي كان على إلمام تام باللغة العربية والشريعة الإسلامية وإليه كانت رئاسة الوفد[6] . إذن نحن أمام وفد رسمي كامل، بما يشبه السفارة، خرج من بغداد محملا بالهدايا، ولم تكن الرحلة لغرض التعرّف، كما هو الحال في معظم الرحلات الأخر.

لذا جاءت انطباعاته عن الأقوام التي مرّ بها انطباعات تقويمية، إذ أخضعها لما تربى عليه وأحبه من عادات اجتماعية، فهو عندما يصل إلى الجرجانية (كراكاند) وأهلها قوم مسلمون يصفهم بالقول: وهم أوحش الناس كلاما وطباعا، وكلامهم أشبه شيء بصياح الزرازير، وبها قرية على يوم يُقال لها أردكو أهلها يُقال لهم الكردلية كلامهم أشبه شيءٍ بنقيق الضفادع وهم يتبرؤون من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه»[7] .

ثم يتحدث في مكان آخر عن الغز بقوله: أفضينا إلى قبيلة من الأتراك يعرفون بالغزية، وإذا هم بادية لهم بيوت شعر يحلون ويرتحلون... وهم كالحمير الضالة، لا يدينون لله بدين ولا يرجعون إلى عقل ولا يعبدون شيئا، بل يسمّون كبراءهم أربابا، فإذا استشار أحدهم رئيسه في شيء قال له: يا رب أيش أعمل في كذا وكذا وأمرهم شورى بينهم غير أنهم متى ما اتفقوا على شيء وعزموا عليه جاء أرذلهم وأخسّهم فنقض ما قد أجمعوا عليه»[8] .

أما عندما يتحدث عن الروس فيقول في وصفهم: «وهم أقذرُ خلق الله لا يستنجون من غائط ولا بول ولا يغتسلون من جنابة ولا يغسلون أيديهم من الطعام، بل هم كالحمير الضالة» [9]. بالمقابل ينقل تصور الروس، بقوله: «وكان إلى جانبي رجلٌ من الروسية فسمعته يكلم الترجمان الذي معي، فسألته عمّا قال له فقال: إنه يقول: أنتم يا معاشر العرب حمقى...» [10]. هكذا نراه ناقدا فضلا للمسلمين لأنهم مختلفون عنه اجتماعيا، ومسفها لغير المسلمين حتى أنه جعلهم كالأنعام (الحمير) لاختلافهم الديني، وكانت انطباعاته محصورة في هذين الإطارين.

4. تحولات رحلة ابن فضلان وارتحالاتها

لاشك في أننا أمام قراءات متعددة للرحلة التي يمكن أن نعدّها، بدورها، قراءة هي أيضا. وإذا كنّا لا نملك تصورا واضحا عن ابن فضلان وأصله وقوميته، فإن ثمّة، من القدماء، من يرجح أنه مولى، وهو رأي أخذ به المحدثون[11] . وذوبان الأصل يؤكد أن ثمة جامعا أوسع منه عند الآخرين في النظر إلى عالمنا، وهو الجامع الديني، وهذا ما وجدناه في الربط بين التركي والمسلم، بعد توسع الدولة العثمانية في أوروبا. إذن نحن أمام سمة تصنيفية عند الآخر مبنية على الأساس الديني لكونه الأبرز بالنسبة إليه.

ثمة ثقافة إسلامية جامعة مثّلت أعلى سمات التقدم تقابلها بربرية ارتبطت بوحشية، وتتارية ارتبطت بالسلب والنهب. أي ثمة توزيع مضمر بين شمال شرقي تتاري وشمال غربي بربري.

وربما لم تعرف رحلة عربية- إسلامية من الاهتمام ما عرفته رحلة ابن فضلان[*] والأمر يعود

(6) رسالة ابن فضلان، الدهان: ص-23 24.
(7) رحلة ابن فضلان: -49 50.
(8) رحلة ابن فضلان: -61 62.
(9) رحلة ابن فضلان: 103.
(10) رحلة ابن فضلان: 109.
(11) ينظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، (د. ت): ج1: 576. أما من المحدثين فجميع من كتب عنه، وآخرهم محقق الطبعة التي أصدرتها المؤسسة العربية للدراسات والنشر ببيروت في العام 2003، الشاعر شاكر لعيبي: ينظر: رحلة ابن فضلان: 29.
(*) ابن فضلان، أحمد بن العباس بن راشد بن حماد البغدادي، عالم إسلامي من القرن العاشر الميلادي. ليس لدينا عنه معلومة أكيدة إلا زمن رحلته التي وثقها قلمه، وكانت سنة 921 م. ينظر: رسالة ابن فضلان، أحمد بن فضلان، تحقيق الدكتور سامي الدهان، مطبوعات المجمع العلمي بدمشق، ط1، 1959: 37.

لكونهـا الرحلـة الأولى التي تواجهـت فيها الروح الشرقية بجميع حمولاتهـا بالروح الغربية بجميع حمولاتها أيضا، فكان التقدم والروحانية بمواجهة التخلف والمادية؛ وهذه الثيمة الأسـاس التي نراها تتجلى من خلال انطباعات ابن فضلان في رسـالته (رحلتـه) التي دونها أو في التحـولات اللاحقة لها. وفي دراستنا نسعى للوقوف عند النص الأصلي، ثم تحوله روايـة عند كرايتون(*) تحت مسـمى (أَكلَة الموتـى) ففيلمـا سـينمائيا تحت عنـوان المحارب الثالث عشر، فمسلسـل عربي تحت مسمى سقف العالـم. ومن المهم بيان أن مـا قدمه كرايتون كان الأشـهر، والأكثر تأثيرا، إذ بعث ابن فضلان بعد أن نسـيه العرب، وتراكم الغبار على مخطوطته، لكن مـا وقع فيه قـارىء الرواية ومشـاهد الفيلم التي بني عليها (المحارب الثالث عشر) أنه تصوّر أنّ ما قدمه الروائي هي الرحلة في مخطوط جديد، بل أنّ باحثـا في الرحلة وقع في هذا الوهـم، وهو الدكتور حيـدر غيبـة[12] ، الـذي أصـدر الرحلـة في طبعة عربية اسـتنادا إلى رواية كرايتون، ولم يتنبه إلى أن كرايتون حذف الجزء الأساس من الرحلة، وغايتها، أعني الجزء الخاص ببلاد الصقالبة. وكذا فعل مع حديث ابن فضلان عن الخزر. وما أضافه كرايتون أكثـر من ضعف المتن بكثير. لقد بنى رواية أخرى لم يأخذ فيها من رحلة ابن فضلان سـوى المرتحل نفسـه (ابن فضلان) وهجر معظم أحداثها. وهذا الخطأ البائن سـيقع فيه السـعودي أحمد البقالي، بعد مرور تسـع سـنوات على صدور طبعة غيبة، إذ ذهـب البقـالي إلى القول: «إلا أنـي حين انتهيت من قراءة مـا كتبه الدكتور الدهـان أصبت بخيبة أمل؛ فما عثر عليه الدكتور الدهان وحققه لم يتعد جزءا بسـيطا من الرسالة الأصلية. وأحسست مرة أخرى، وبعد أن كنت اسـترحت، بعبء نقل العمل الكامل إلى العربية ينزل عن كاهلي. فما جمعه (بير فراوس- فولوس) بجامعة (أوسلو) ورتبه الكاتب الإنجليزي (مايكل كرايتون) في شـكل رواية يفوق بمراحل ما حققه الدكتـور الدهان»[13] . ويتحسر في الصفحة اللاحقة على كونه لم يهتد إلى النسـخة العربية التي اعتمدهـا كرايتون من دون أن يدرك أنـه هنا أمام عمل روائي لا علاقة له بأصل مكتوب أو مخطوط.

5. أكلة الموتى ولعبة الإيهام بالأصل

في العـام 1976 نـشر كرايتـون روايتـه (أَكَلةُ الموتـى[14] وقـد زاوج فيهـا بين المتخيـل والنصي (السيري) إذ افتتحها بالتهجم على الخليفة المقتدر، وانعطف نحو ذكر تاجر بخيل اسـمه (ابن قارن) والإحالة على قارون واضحة. تاجر لا علاقة لذكره بأحداث الرواية اللاحقة، يكلف الخليفة ابن فضلان بايصال رسـالة إلى هـذا التاجر، وحـين يصل إلى بيتـه لم يجده، بل يجد زوجه الجميلة، فيطارحها، وحين يعود التاجر إلى بيته ويرى ابن فضلان يشكّ

(*) مايـكل كرايتـونMichael Crichton)) ولـد في شـيكاغو، بأمريكا في العام 1942 وتـوفي في العام 2008، مؤلـف، ومخرج ومنتـج للعديد من الأفـلام التي كتب هو قصتها، وقد بيع من كتبه أكثر من 200 مليون نسخة حول العالم، إذ يُعدّ واحد من أشهر كتّاب الخيال العلمي، عُرِفت أعماله بامتلائها بالإثارة والتشـويق، ومن أعماله المترجمة إلى العربيـة: الحديقـة الجوراسـية، وكونغـو، وماذا بعد؟ وحالة رعب، فضلا عن أكلة الموتى. ينظر: الوكيبيديا: https://ar.wikipedia.org/wiki/.

(12) رسـالة ابن فضلان، جمع وترجمـة وتقديم الدكتور حيدر محمـد غيبة، الشركة العالمية للكتـاب، بيروت، ط1، 1994. وقـد امتد المتن الاسـكندنافي مـن صفحة 87 حتى صفحة 217. أي أنه شكّل ثلاثة أرباع الكتاب.

(13) مغامرات سـفير عربي في إسكندينافيا منذ ألف عام، أحمد عبد السـلام البقالي، مكتبة العبيكان، الرياض، ط1، 2003: 16. والغريـب أنه يـرى أن كريتون أنصف العرب وقدمهم بإيجابية، وهي قراءة غير حصيفة لعمل كريتون، الـذي أذاب شـخصية ابن فضلان في الاسـكندنافيين ونزع عنه حتى دينه.

(14) أكلـة الموتـى، كرايتـون، ترجمـة تيسـير كامل، دار الهلال، مصر، ط2، 1999. وقـد تُرجمت للعربية في العام 1985.

بهم، فيتّهمه لدى الخليفة بالزنا بزوجته. فيقتص المقتدر من ابن فضلان على فعلته ويبعثه رسولا عنه. هكذا نرى أنّ الافتتاح غير موفق بنائيا، ولا إحاليا، إذ لم يكن ابن فضلان حاجبا أو بوابا أو صاحب بريد، ولم يكن من حاشية الخليفة أيضا. إذن نحن مع المطلع نقف أمام نص روائي لا علاقة تربطه بنص الرحلة سوى الإيهام، أي إنّ الروائي استغل الرحلة لتمرير أحداثه.

فبين خليفة يسخر منه جنده، وتاجر بخيل، ورسول زان يبني كرايتون صورة لبغداد، وهي صورة تخالف ما تقدمه الرحلة. ومن ثمّ فإنه لم يزاوج بين الرحلة وما حملته من رؤى، حول البلدان التي مرّ بها المترحّل، لكن يمكن لنا أن نتحدث عن أن ثمّة مسعى لاسقاط بعض أحداث الرحلة على أحداث الرواية، وكأن ثمة مزاوجة بين حكايتين: الأولى رحلة ابن فضلان التي تنتهي بوصوله إلى بلاد البلغار[15] .

أما الحكاية الأخرى، فهي حكاية بيولف أو بياوولف (Beowulf) وهي في الأصل ملحمة شعرية إنجليزية قديمة، تعود إلى حدود 975م أو 1025م. شاعرها مجهول. تدور الحكاية في إحدى المدن الاسكندنافية، حيث تتعرض مدينتهم إلى هجوم من وحش قاتل يُسمّى جريندل فيطلب هروثغار ملك الدينز (قبيلة جرمانية) المساعدة من بيوولف. الذي يقتل الوحش، ثمّ يُلحق به أمه التي جاءت لتثأر لمقتله، وبعد انتصاره يُصبح ملكا للجيتس (أسلاف السويديين). وبعد مرور خمسين عاماً من هذه الأحداث، يهزم بيوولف تنيناً يهاجم المدينة، لكنه يصاب بجروح قاتلة في المعركة. فيموت ويحرق جسده في طقس خاص[16].

وفي العام 2007 قام السيناريست الإنجليزي نيل جيمان والكندي روجر أفاري بتحويل القصيدة في ترجمتها الحديثة إلى فيلم أنيميشن تحت عنوان (بيوولف) مثّل دور بيوولف الممثل الإنجليزي (راي ونستون) ودور مساعده (المحارب ويجلاف) الممثل الأيرلندي (برندان جليسون) أما الوالدة (الشيطانة- الساحرة) فقد مثّلت دورها أنجلينا جولي، وكان الفيلم من إخراج زيميكس. وهو العام نفسه الذي انتج فيه المسلسل السوري (سقف العالم) الذي استوحى الأحداث نفسها. الأحداث التي قُدمت في فيلم المحارب الثالث عشر، فضلا عن هذا الفيلم.

لقد وقف ابن فضلان في حديثه عند رجال الشمال (الروس) وبعد أن يصف ما رآه من أحوالهم في بلغار، يشير إلى أنه حلّ بينهم ثم يتحدث عن أمرائهم، وهو أمر لا صلة له بالرحلة نفسها، فإن هذا يبيّن لنا أن الرحلة لم تتحدث عن الشعوب الاسكندنافية لأنها في الأصل لم تتخط هدفها[17]، وهذا يعني أنّ ابن فضلان لم يصل إلى الدنمارك. أما حكاية الصراع على زعامة أهل الشمال، ووصفهم بالبربرية، وأسطرة الضباب، وحكاية وولف غار، والرعب الذي لا اسم له، والثلاثة عشر فارسا، ورحلتهم ومغامراتهم، وكل

(15) البلغار مملكتان: الأولى، وهي المقصودة في الرحلة، تقع في حوض نهر الفولجا الأوسط. وقد امتدت هذه المملكة المسلمة مابين جبال أورال في الشرق ونهر الفولجا في الغرب، ووصلت جنوبًا إلى بحر الخزر (قزوين) أو ما يقرب منه، وأما حدودها الشمالية فكانت تمتد إلى ما سماه القدماء أرض الظلمات التندرا (الجزء الشمالي من أوراسيا وأمريكا الشمالية)، وكلمة البلغار تطلق على الشعب وعلى الدولة وعلى العاصمة التي تقع علي الضفة اليسري لنهر الفولجا، وما زالت آثارها كأطلال باقية على مقربة من مدينة قازان، على بعد 6 كم من شاطئ الفولجا الأيسر: عن رسالة ابن فضلان، ويكيبيديا، (الموسوعة الحرة) وهي الآن تعرف بجمهورية تتارستان، وإن لم تحتل المساحة نفسها، ينظر: بلاد التتار والبلغار، محمد ابن ناصر العبودي، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، سلسلة كتب محكمة، السنة 18، العدد 188، 1420هـ: 9. إذ يشير إلى أن اطلال العاصمة بلغار تبعد 240 كيلومتر عن مدينة قازان جهة الجنوب.

(16) بيوولف، ويكيبيديا، الموسوعة الحرة:
https://ar.wikipedia.org/wiki
وبخصوص خرق جثث موتاهم ينظر: الفايكنغ، ويكيبيديا:
https://ar.vvikipedla.com/wiki/Vikings

(17)ينظر: أكلة الموتى: 37.

مـا بُني على ذلك إنما هو بنـاء قصصي لا علاقة له بمتـن الرحلة، وإن ألبسـه الكاتب لبـوس الرحلة نفسها[18] ، إذ الشخوص والأحداث مصطنعة لبناء حبكة روائية بأسلوب الرحلة. زاوجت بين حكايتي ابن فضـلان وبيوولـف. ولتكـون هـذه المزاوجة مقنعة أوجد حكاية الفرسان الثلاثة عشر.

ومـن ثمّ فـإنّ حديثـه عـن الفايكنـغ والوايكنغ ومدينـة الترلبرغ من نسـج خيـال الروائي، فنحن هنا أمام رواية مبنية على حدث مركزي هو مغامرة الفرسـان الثلاثة عشر، برغم أن المترجم كان يعلق في الهامش بما يوحـي بواقعية ما يُروى[19] ، ومن بعد يتحدث عن تقديس الرقم 13 لدى الفايكنغ في حين أنهم من الشـعوب المتشـائمة منه، «على غرار العشـاء الأخير، كانت هنـاك مأدبة كبـيرة للآلهة النورديـين، وكان عدد الآلهة 12، فتسـلل «لوكي» إله الـشر والأذى إلى المأدبة؛ ليصبح العضو الثالث عشر، ثم بالخديعة تسـبب في قتل الإله «بالدر» إله النـور»[20]، وهو يروي على لسـان ابن فضلان أنّ «هؤلاء الشـماليين قـوم يؤمنـون بالخرافات دون رجـوع إلى المنطـق أو العقـل أو القانـون، وكانوا يبـدون لعينـي وكأنهم أطفـال متوحشـون»[21].

(18) ينظـر: أكلـة الموتى: مـن الفصل الرابـع (33) حتى نهاية الرواية.

(19) ينظـر: أكلـة الموتـى: 57. يتحـدث عـن مجتمعهم بالقول: أما مجتمع ترلبرغ فمعظمه من الرجال، والنسـاء كلهن جواري إذ ليس هناك من زوجات بين النساء، كما أن كل النسـاء هناك يتم الاسـتمتاع بهنّ بحرية وحسب رغبة الرجـال. ص58، وهذه الصورة غير موجـودة، طبعا، عند ابن فضلان، بل أن الراوي هو الباني لصورة الاسكندنافيين.

(20) https://www.sasapost.com/opinion/secret-of-number-13/

وينظر: الأسـاطير النورديـة، نيل جايمان، ترجمة إسـلام مماد عـن موقـع https://www.4read.net/down-load/أكلة الموتى: 61.

(21) ما ينسـجه الخيال، موقـع صحفي عن (دار الحياة) تاريخ النشر 5/ 2/ 2008:
http://www.sahafi.jo/arc/art1.php?id=3b6f1f32cbd812362401f7a2274da4d098e374f6.

هكذا يتخذ الروائي من ابن فضلان قناعا في بعض الأحيان. برغم أنّ «رحلة ابن فضلان لم تذهب أبعد من الفولغا، أي أنها لا تشـير الى بـلاد الفايكنغ في الدنمارك. لكن روايـة مايكل كرايتون تذهب بابن فضـلان الى تلك البلاد. وقد اختلـق المؤلف مصدراً لهـذه المعلومات مـن عنداياته، وزعـم ان صاحب المصدر هو بروفسور نروجي يُدعى Fraus Dolus ولدى التحقق من ذلك ثبـت ان كلمة fraus تعني الاحتيـال والغـش، وكلمة Dolus تعنـي الخديعة باللاتينيـة»[22]. ومن ثمّ يمكن القول بأنه ما قدمه كرايتـون «هـو نـص روائـي حديث يقـدم قراءة غربية لنص تراثـي عربي، تعبر عن موقف عدائي من الحضارة العربية الإسـلامية، وتحقق انهزامها واستلابها من خلال انهزام ذات الرسول الممثل لها أمام حضارة الفايكنج، وتحولها إلى ذات شـمالية ينقطع انتماؤها إلى الذات العربية الإسلامية»[23] .

6.المحارب الثالث عشر وسقف العالم

قـام المخـرج مكتيرنـان عـام 1999م بكتابـة سيناريو فيلم بعنوان (المحارب 13) مستوحى من رواية (أكلة الموتى)، جسـد أدوار البطولة فيه، كل من: أنطونيـو باندیراس وفالديمـير كولش وعمر الشريف وجيري غولد سـميث، وقد قـام أنطونيو باندیـراس بـدور ابـن فضـلان، فيمـا أدى عمر الشريف دور المترجم.

أُنتـج هذا الفيلم في العام 1999 وقد شـارك كرايتون نفسـه في انتاجـه. وباندیـراس بأصوله الأسبانية نجح في تجسيد صورة الفتى العربي ابن فضلان، وهـذا يعني أنّ الفيلم انطلق من مسـلمة أنّ كل مسـلم عربي. وبذا لم ينظـر في إمكانية ان

(22) المصدر نفسه.

(23) رحلـة اسـتلاب الذات قـراءة في رسـالة ابن فضلان بتحقيـق حيدر محمد غيبة، الدكتورة رؤى حسـين قداح، مجلة دراسـات في اللّغة العربية وآدابهـا، فصلية محكّمة، العـدد السـادس عـشر، جامعة تشريـن، اللاذقية، شـتاء ١٣٩٢ه.ش/ ٢٠١٤م.

يكـون ابـن فضلان غربـي الأصـول[24]، لأنه بهذا ينسف مسلماته. أما إذا تخطينا اللقطات المرتبطة بالمقدمـة، والتـي سـبّبت الرحلة بغـيرة ذكورية، وهو أمـر يعطي صـورة مغايرة عـن حقيقة ابن فضلان الذي كان ملتزما أشد الالتزام. وعن السبب الحقيقـي للرحلة. ثـم صوّرت هجـوم البربر على القافلة، فسـنرى أنّ اللقاء الأول مع الآخر يبدأ من مفارقـة تمثّلت بالحفل والسـكر المقام لموت الملك، وهـو أمر يتعـارض بقضه وقضيضه مـع تقاليد المسـلمين. وهكذا يبدأ من صدمـة التعرّف ليكون الملحـق المشـؤوم (13). وكلنا يعلـم أن هذا الرقم ارتبط بالحساب الحروفي عند السريان، ومن ثمّ فهو يُشـير إلى يوم الـ(أحد) ويـرى البعض أنه من هنا بدأ التشـاؤم منه، إي إنّ شؤومه مسيحي لا وثني، وهذا أمر يؤكد أنّ كرايتون قد أسـقط حاضره على مـاضي الرحلة، إن في روايته أو في الفيلم. ثم ينتهي بكونـه سـابعهم؛ أي إن البدايـة كانـت تصارعية والنهاية توحدية. وهذا يلائم منطق السـينما لكنه بعيد عن منطق الرسـالة نفسها. فمن يقرأ رسالة ابن فضلان يرى أنّ الحس الاستعلائي يكاد يكون السبب الرئيس في تدوين الرحلة نفسها، فهو يضع أعرافـه وثقافته قاعدة يقيس الآخر من خلالها. في حين أنه هنـا يذوب في ثقافة الآخر، أي إن الصورة معكوسة تماما، إن في الرواية أو الفيلم.

والغريب أن المسلسـل العربي وقع في المفارقة نفسها، ففي الوقت الذي سعى هذا المسلسل ليكون مسلسـلا دعويا، يتولى الرد عمن أسـاء للرسول إلا أنـه وقع في فخ الرواية والفيلم، ومن ثمّ فإنه أضاع البوصلة بهذا الانجرار غير المفهوم.

بداية الفيلم سيسـتعيدها المسلسـل في الحلقة الثامنة منه، ويبقى يحاور الفيلم في أكثر من تفصيل برغم أن هذه التفاصيل لا علاقة لها بالمتن الأصلي، وإذا كان الطفـل المرسَـل لنجـدة قومـه والعرافة والفرسـان الثلاثة عشر، كلها استعادة للفيلم. فإن الانتقال بين الحاضر والماضي لم يكن مسـوغا فنيا على المستوى التقني ولا أسلوبيا على مستوى البنية النصية. ومن ثمّ كان اسـتغلال الرسومات المسيئة مجرد مسـعى دعائي اسـتعراضي أكثر منه ثيمي أو جوهري. وربما اختيار الممثلين أنفسـهم خضع لهيمنة الفيلم نفسه.

عُرض المسلسـل (سـقف العالم) الذي كتبه حسن يوسـف وأخرجه نجدة أنزور في العام 2007 وهو مـن بطولة قيس الشـيخ نجيـب الـذي أدّى دور الرحالة أحمد بن فضلان (الماضي) والممثلة سـلاف فواخرجي تقوم بـدور طالبة الدكتواره العربية في الدنمـارك (الحاضر) وموضـوع اطروحتها رحلة ابن فضلان. سـعى المسلسـل نحـو تأكيد صورة المسـلم المثقف مقابـل الاسـكندنافي الهمجي التي سـبق أن قدمها ابـن فضلان في رحلتـه (المتصور المعلن برغم عدم حصوله).

اشتغل المسلسل على بيان الطابع المتحضر للإسلام، ومن ثمّ فهو محكوم بهذا المسار الأيديولوجي الذي كان لا واعيـا عنـد ابن فضـلان. ولا نريد أن نقف عند بنية المسلسـل التي نـرى أن الحلقات الخمس الأول لم تكن موفقـة بتقديم صورة بانورامية عن مجتمع بغداد القرن الرابع، بل انشـغلت بقصص حـب جانبية رهلـت القص لا أكثـر. فضلا عن ان أداء العديد من الممثلين كان متكلفا [25]. ولم ينجح المسلسـل فيما نجح الفيلم به، إذ استطاعت رواية أَكلةِ الموتـى، وفيلم المحارب الثالث عشر أيضا، من النجاح في تصوير قدرة الثقافة الشمالية بطبيعيتها الإنسـانية على ابتلاع الثقافة الإسـلامية المصطنعة وتحويل المثقف المسـلم إلى محارب شـمالي، يتمتع بجميـع خصائص هذا المحارب، بـل إنه يؤمن بما يؤمن به الشماليون.

(24) وهذا الرأي ذهب إليه محقق رحلته (شـاكر لعيبي) ينظـر: رحلة ابن فضلان: 30. برغـم أن حديثه عن مدينة الجرجانية وشـدة بردها وثلوجها يدلل على أنه ابن بيئة لم تألف برد كهذا. ينظر: رحلة ابن فضلان: ص-51 52.

(25) فضـلا عن التكلـف هناك ما يمكن عـدّه هأخطاءً لا مسوغ لها مثل حديث أحد رجالات الترلبرغ مع ابن فضلان مستشهدا باللغة الانكليزية في الحلقة 15، بعد الدقيقة 16.

الخاتمة

لاشــكّ في أن رســالة ابن فضلان نص مؤســس للعلاقة بين الجنوب والشــمال، ورصــد نظرة كل منهمــا للآخر، وقد كُتب من دون تكلف أو قصدية أيديولوجية أو دعوية، بل يمثّل الصدمة بعفويتها الحقّة. صدمــة التعرّف على تقاليد مختلفة وطباع مختلــف وبيئــة مختلفــة. في حين أن اســتعادتها مــن قبــل الروائي كرايتــون جاءت لتخــدم رؤيته الخاصــة، وهي رؤية أذاب فيهــا الجنوب في بوتقة الشــمال، وجعل ابن الطبيعة يســحب ابن الثقافة نحــو طبيعيتــه، ومنّ ثم ذابــت ثقافته وتلاشى أي تأثــير محتمل؛ ومن دخل الشــمال كاتبا خرج منه مقاتلا. هــذه البنيــة الروائية التي اســتوحت ابن فضلان سقط في فخها العديد من الكتاب والباحثين العــرب، بتصور إنها الرحلة نفســها، لا قراءة راوٍ واستعادة أديب جمع فيها نثار حكايات عدة. ومن ثــمّ غُيبت الرحلة الأصلية وأصبحت رحلة كرايتون هــي الأصل الذي بُنيت عليهــا المتصورات الدرامية لاحقــا، إنْ في الســينما أو في التلفزيــون. ومن جاء لينقد النظرة الاســتشراقية المضمرة عند الغربيين أو المعلنة ســقط في أتون هــذه النظرة من دون أن يشعر بهذه المفارقة المفجعة.

قائمة المصادر

- الأســاطير النوردية، نيل جايمان، ترجمة إسلام عماد عن موقع:
https://www.4read.net/download/
- أكلــة الموتى، كرايتون، ترجمة تيســير كامل، دار الهلال، مصر، ط2، 1999
- بلاد التتــار والبلغار، محمد ابن نــاصر العبودي، رابطة العالم الإســلامي، مكة المكرمة، سلسلة كتب محكمة، السنة 18، العدد 188، 1420هـ.
- تاريخ الأدب الجغرافي العربي، كراتشكوفســكي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط1، 1957.
- تحقيــق ما للهند من مقولــة مقبولة في العقل أو مرذولة، أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني، عالم الكتب، بيروت، ط3، 1983.
- الجغرافية عند العرب، الدكتور شاكر خصباك، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1986.
- رحلة ابن فضلان، تحقيق شاكر لعيبي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2003.
- رحلــة اســتلاب الــذات قــراءة في رســالة ابــن فضــلان بتحقيــق حيدر محمد غيبة، الدكتورة رؤى حســين قداح، مجلة دراســات في اللّغة العربية وآدابهــا، فصلية محكّمة، العــدد الســادس عــشر، جامعة تشريــن، اللاذقية، شــتاء ١٣٩٢ه.ش/٢٠١٤م.
- رســالة ابن فضلان، أحمد بن فضــلان، تحقيق الدكتور ســامي الدهان، مطبوعــات المجمع العلمي بدمشــق، ط1، 1959.
- رسالة ابن فضلان، جمع وترجمة وتقديم الدكتور حيدر محمد غيبة، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، ط1، 1994.
- سر الرقم 13، أحمد المقدم، موقع ساسة:
https://www.sasapost.com/opinion/secret-of-number-13/
- مــا هي الفلســفة، ترجمــة مطاع صفدي، مركــز الإنماء القومي، بيروت ط2، 1997.
- ما ينسجه الخيال، موقع صحفي عن (دار الحياة) تاريخ النشر 5/ 2/ 2008:
http://www.sahafi.jo/arc/art1.php?id=3b6f1f32cbd812362401f7a2274da4d098e374f6
- معجم البلدان، ياقوت الحموي، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، (د. ت).
- مغامرات سفير عربي في إسكندينافيا منذ ألف عام، أحمد عبد السلام البقالي، مكتبة العبيكان، الرياض، ط1، 2003: 16.
-الوكيبيديا:https://ar.wikipedia.org/wiki/.